مراكز البحث في الوطن العربي وجهودها في المحافظة على المخطوطات ونشرها : بلدان المغرب العربي أنموذجا " .

الدكتور منير البصكري

أستاذ باحث ، نائب عميد الكلية متعددة التخصصات . أسفي

جامعة القاضي عياض . مراكش . المملكة المغربية

إن ما خلفته الحضارة العربية والإسلامية من مخطوطات في مختلف المجالات المعرفية ، يعد ذخيرة فكرية مما خلفته أية حضارة أخرى في العالم . ولقد وصلتنا مئات الآلاف من المخطوطات من مختلف العصور الإسلامية ، بالرغم من الكوارث العديدة التي أودت بالكثير من المخطوطات، وبالرغم أيضا من العوامل الطبيعية والآفات التي فتكت بالكثير منها .وهذه الذخيرة تكشف لنا عن ضخامة خزائن الكتب ومراكز البحث في تلك الفترات وما كانت عليه حضارتنا العريقة من رقي ونمو فكري في عصور تقدمها وازدهارها .

ومما لا شك فيه ، أن العرب منذ العصور الإسلامية الأولى ، قد أعطوا الكتب الخطية عناية كبيرة ، خاصة في العصر العباسي ، حيث ازدهرت حركة الترجمة والتأليف ، وأقبل الناس على النسخ واقتناء الكتب والعناية بها .1ذلك أن الإسلام . كما هو معلوم . حض على طلب العلم واستخدام العقل . وقد عبر المؤرخ " وول ديورانت " عن روح ذلك العصر بقوله : " لم يبلغ الشغف باقتناء الكتب والمخطوطات في بلد آخر من بلاد العالم . اللهم إلا في بلاد الصين . ما بلغه في بلاد الإسلام في هذه القرون ، حين وصل إلى ذروة حياته الثقافية ، وأن عدد العلماء في آلاف المساجد المنتشرة في البلاد الإسلامية من قرطبة إلى سمرقند ، لم يكن يقل عن عدد ما فيها من الأعمدة .. "2

فلا مراء أن يكون تراثنا العربي الإسلامي قد لقي اهتماما زائدا وعناية ملحوظة في المحافظة عليه وصيانته .. فكان كل ما خلفه اسلافنا من تراث فكري وحضاري وافرا عظيما . ذلك أن العلماء انكبوا على تحصيل المعارف الإنسانية المتقدمة وتنميتها حتى صارت على أيديهم صرحا شامخا ، كما حرصوا على تدوين جهودهم فيه بدقة عظيمة ، وذلك كي تبقى شعلة العلم متقدة أكثر وهجا ونورا وبهاء ، وحتى يؤدوا أمانة العلم إلى أجيال البشرية المتعاقبة ، وهي أكثر وفرة ونماء . فلا غرو أن ملأت جهودهم وأعمالهم العلمية مختلف العواصم العربية الزاهرة في بغداد

ودمشق والقاهرة وتلمسان وفاس وغرناطة واشبيلية وفي بلاد فارس وفي كل مكان حل فيه عالم عربي بيده قرطاس وقلم .

إن من المعروف عن العرب والمسلمين منذ قرون خلت ، حرصهم على جمع مختارات من عيون الكتب المخطوطة ، واهتمامهم المتزايد لامتلاكها ، وهو اهتمام أصيل ونبيل ، يكشف عن عطاء حضاري وعلمي متميز . ولعل أكبر المميزات البارزة في المخطوط العربي . على وجه العموم . عنصر الشمولية التي تنطلق من الضروريات والحاجيات ، وتشمل نتاج القيم الفكرية والمادية والروحية والأخلاقية والجمالية . وهكذا ، تعددت موضوعات هذه المخطوطات ، فكان منها ما هو في المنطق والرياضيات والأدب والفلسفة والفقه والتصوف والتاريخ وكل العلوم الأخرى . إنها فعلا ذخيرة فكرية لا مثيل لها ، وتراث حضاري قويم ، مما يؤكد ما لتراثنا العربي من أصالة وقيمة ، وما يزخر به من إيجابيات وإشعاعات . وبالطبع ، فقد جاء ذلك نتيجة حتمية حققها العرب والمسلمون في ميادين العلوم ، وما أحرزه علماؤهم من سبق وتقدم في المجالات النظرية والتطبيقية على حد سواء . كل ذلك ، يمكن اعتباره كشهادات للعبقرية العربية والإسلامية .

إن المخطوطات العربية بوصفها تراثا أصيلا ، لقيت عناية فائقة من طرف علمائنا على امتداد الوطن العربي . ويكفي أن نمثل لهذه العناية بخزانة بيت الحكمة التي انشأها المامون العباسي منذ القرن السابع الهجري ، إذ كانت لهذه الخزانة فهارس ، وأن الخليفة المامون كان يطلبها متى شاء ذلك .

ولعل زيارة خاطفة إلى بعض المكتبات في أوروبا كالإسكوريال بضواحي مدريد ، والمكتبة الوطنية بباريز ، إضافة إلى خزانة الفاتيكان بروما ، كلها تكشف عن رصيد هائل من المخطوطات العربية ، وقد صنفت وفهرست ونظمت ، فكانت مقصد العلماء والباحثين ، كانوا من العرب أو المستشرقين ، نظرا للزخم الهائل من المعلومات اقيمة التي تزخر بها هذه النفائس التي سلمت من الكوارث والنكبات التي عرفتها بعض البلاد العربية ، حيث تم نقل الكثير منها إلى دور المخطوطات والأديرة والمتاحف الأجنبية في ديار الغرب خلال الحروب الصليبية ، ثم خلال الاستعمار الحديث للبلاد العربية . ويقدر معهد المخطوطات العربية عددها بثلاثة ملايين مخطوط .3 ولم يكن نصيب المخطوطات العربية من الدمار خلال زحف " تيمورلينك " بأقل منه على يد " هولاكو " . وفي الغرب الإسلامي ، تعرض التراث العربي الإسلامي للمحنة نفسها . فحين سقطت غرناطة بيد الإسبان عام 1492 م وانتهت دولة المسلمين في الأندلس ، أحرقت عشرات الآلاف من المخطوطات . 4

نعم ، لقد حظيت البلاد العربية الإسلامية . كما أسلفنا . بتراث علمي وثقافي مخطوط ، قل أن حظيت بمثله أمة من الأمم عبر التاريخ . ولا يتمثل ذلك في كثرته وحجمه فحسب ، بل في محتوياته العلمية والأدبية والثقافية والتاريخية ، واتساع آفاقه ، ليشمل العالم القديم والوسيط جغرافيا وتاريخيا .

وأمام هذا المعطى ، فإننا اليوم أكثر من أي وقت مضى ، بحاجة إلى الاعتزاز بتراثنا المخطوط، بغية تجديد ثقافتنا وتعزيز انتمائنا إلى الذات مع الانفتاح على العصر .. وذلك عبر إعادة الاهتمام بتراثنا والحفاظ على هويتنا من الضياع والذوبان في هوية الآخرين .

إن التراث المخطوط الذي يجمع مؤلفات علمائنا السابقين وإبداعاتهم وعطاءاتهم الفكرية الخلاقة في جميع مجالات العلوم والآداب والفنون ، لهو خير حافظ لنا من الذوبان في حضارة الاخرين ، مما يستوجب منا أن ننفض عنه غبار الزمان ، وأن نوليه من العناية والرعاية ما يستحق .

ومع ذلك ، لا جدال في كون تراثنا العربي المخطوط في الوقت الراهن ، يلاقي الاهتمام الزائد والعناية اللائقة ، بغية الحفاظ عليه وصيانته وتحقيقه ونشره . ويرجع ذلك إلى مجموعة من الأسباب والدواعي ، نذكر منها مثلا :

. زيادة وعي الباحثين بقيمة هذا التراث وما أداه إلى الإنسانية من خدمات جليلة يسرت لها المحافظة على ما اكتسبته في مسيرتها الطويلة من قيم رفيعة ، وخطت بها خطوات واسعة نحو الترقي والازدهار ، فكان أن عنينا بأن ننفض عن تراثنا غبار الإهمال ، ونمنع عنه أيدي العبث والنهب ، وحرص كل بلد عربي على ما لديه منه ، مستنا في ذلك من التشريعات ما هو كفيل بالمحافظة عليه باعتباره ثروة قومية لا تقدر بثمن .

. الإسهام الكبير الذي قام به معهد المخطوطات العربية منذ إنشائه ، من حيث جمعه لصور المخطوطات وتقديمها إلى الباحثين بأقصر السبل وأيسر التكاليف . وعمل كهذا ، قمين بالاعتبار.

. إنشاء جامعات جديدة في أرجاء البلاد العربية ، وحث الأساتذة والطلبة على اكتشاف كنوز هذا التراث بدراسته وتحقيقه ونشره ، وجعله أساسا لبحوثهم الجامعية ، ينطلقون منه إلى مختلف الدراسات سواء القديم منها أو المعاصر .

. بذل المزيد من الجهود في مجال جمع التراث المخطوط وإحيائه والاستفادة منه ..

. إنشاء صندوق عربي خاص لتمويل حماية التراث المخطوط ونشره ..

. تباذل الخبرات الفنية والبعثات التدريبية المتصلة بالمخطوطات وتصويرها ، وصيانتها وترميمها ، وتبادل الفهارس للتعريف بما تقتنيه كل دولة من مخطوطات مع السعي لإنجاز فهرس موحد .

. الحاجة إلى تقويم الجهود التي تتفق في هذا الاتجاه ، وبحث الوسائل لتوحيدها أو التنسيق بينها لجعلها أكثر فاعلية وجدوى مما هي عليه الآن .

وعلى كل حال ، فإن حركة إحياء هذا التراث العربي المخطوط ، قد بدأت في النصف الثاني من القرن العشرين بالاهتمام إلى حد كبير بعملية الضبط الببليوغرافي لهذا التراث ، وذلك بالاعتناء بوجه خاص بإعداد فهارس لهذه المخطوطات القيمة وإصدارها من قبل هيئات علمية بنشرها وتوزيعها .

لقد عرفت المخطوطات العربية اهتماما ملحوظا في السنوات القليلة الماضية من قبل الحكومات والمؤسسات الرسمية والخاصة ، وكذا من قبل الباحثين والمهتمين ، إلا أن ذلك ما يزال بحاجة إلى مزيد من الاهتمام والرعاية والدعم ، لا سيما ونحن نعيش عصر العولمة الذي يسعى إلى القضاء على الشخصية الوطنية للدول النامية ، وبخاصة منها شخصيتنا العربية الإسلامية . لذلك ، يجب أن تأخذ هذه القضية قدرا أكبر من الرعاية والاهتمام ، حفاظا على هويتنا ووجودنا .

إن الفهارس التي تحدثنا عنها سابقا ، تفتح أمام العلماء الباحثين مغالق تلك الكنوز الخطية الموجودة فوق رفوف المكتبات العامة والخاصة ، قد بلغت أعداد هذه الفهارس من الكثرة ، بحيث أصبحت الإحاطة بها تكاد تكون ضربا من المستحيل ، لذلك نهض عدد من الباحثين المهتمين بوضع ببليوغرافيات عامة ومتخصصة لرصد هذه الفهارس والتعريف بها ، في مقدمتهم : " هويسمان " و"فاجدا " و"بيرسن " و"بروكلمان " من علماء الغرب ، و" يوسف أسعد داغر " و" فؤاد سيزكين " من أبناء العرب الذين بذلوا مجهودات مهمة في هذا المجال .5

وعلى الرغم من كل الإكراهات التي تواجه الباحثين والمهتمين بالتراث المخطوط ، فإننا نؤكد بأن المخطوطات العربية قد عرفت اهتماما ملحوظا في السنوات الماضية من قبل الحكومات العربية والمؤسسات الرسمية والخاصة ، وكذا من قبل غير قليل من الباحثين والدارسين .فقد بدأت حماية هذه المخطوطات العربية تخرج من الاهتمام الفردي إلى الاهتمام المؤسساتي ، وهي مؤسسات قامت بجهود كبيرة أشرف عليها جيل من الأساتذة الرواد الذين بدأوا السير في هذا الطريق الصعب ، هدفهم اكتشاف كنوزه المجهولة .. إلى جانب الجهود التي بذلها بعض المستشرقين الذين اسهموا إسهاما فاعلا في حماية هذه المخطوطات وصيانتها والتعريف بها .6

إننا في الواقع بحاجة إلى مزيد من العناية بتراثنا المخطوط ، وحمايته وتصويره من أرشيف ومكتبات العالم .. وما لم تتضافر الجهود ، فسيصعب إنقاذ مخطوطاتنا العربية .ومع ذلك ، فلا أحد ينكر الجهود التي انبرت لها مراكز البحث على امتداد الوطن العربي ، وخاصة في البلدان المغاربية . ترى ، كيف تشتغل هذه المراكز ، وما هو الدور الذي تقوم به في حفظ وصيانة

التراث المخطوط ؟ وما هي الأهداف التي تتوخاها والمهام التي تسعى إلى بلورتها ، والأقسام التي تتوفر عليها في مجال الحفظ والمعالجة والترميم والجمع والتصنيف والفهرسة والدراسة والنشر ؟ .

لقد عرف اهتمام مراكز البحث والمكتبات الجامعية بالمخطوطات تطورا كبيرا في السنوات الأخيرة، وهو اهتمام أصبح يزداد يوما بعد يوم ، نظرا للخصائص الفنية والجمالية والتاريخية التي يتميز بها المخطوط العربي عن سائر الأوعية المكتبية الأخرى . وهذا يدعونا للتعرف على مدى اهتمام مراكز البحث المغاربية بالتراث المخطوط .

ففي تونس مثلا ، توجد عدة مراكز تهتم بالحفاظ على المخطوطات ، فالمكتبة القومية ، وقع التجميع بها منذ شتنبر 1967 للمخطوطات العربية ، مثل خزائن جامع الزيتونة (الأحمدية والصادقية) أو المكتبة العتيقة العمومية بالكاف .. إلى جانب ذلك ، نجد مكتبات خاصة تزخر بالنفيس والنادر، 7 دون أن ننسى المكتبات الجامعية وما تحويه من مخطوطات قمينة بالاعتبار، تتوفر لها العناية الخاصة ، كمتابعة تجليد ما ترهل ، وتعقيم الوارد عليها ، وتيسير الاستفادة منها للباحثين . وعلى سبيل المثال ، نذكر أن المكتبة القومية بتونس ، كانت منذ مدة قد بدأت في فهرسة كامل رصيدها المخطوط ، حيث صدر جزء أول سنة 1969 ، يعرف بقسم من مخطوطات الأحمدية ، وهو من تجزئة أربعة أقسام لهذه المكتبة ، صدر بعده فهرس مستقل لمخطوطات بعض الخزانات الخاصة ، 8 ضمن سلسلة جديدة من الفهارس لكامل المخطوطات المحفوظة بالمكتبة القومية . ومعلوم أن مهمة هذه المكتبة كمركز أساسي ومهم لحفظ التراث المخطوط ، لا تقتصر على العناية بما جمع في خزائنها عناية مادية وأدبية ، بل هي :

1 . تعمل على إيجاد نواة للمصورات من رصيدها ، حيث يقع تصوير النادر والفريد على أشرطة (ميكروفيلم) أو لوحات طبق الأصل ، لاستعمالها وللمحافظة على المخطوطات الأصلية من الترهل بكثرة الاستعمال .

2 تحاول إقناع أصحاب الخزائن الخاصة بالتعاون معها ، لتعريفهم بمحتوى ما يملكون من مخطوطات وبقيمتها المادية والأدبية . ولا يخفى لما في هذا التعاون من فائدة تعود على المكتبة وعلى اصحاب المكتبات الخاصة .

3 . تربط المكتبة القومية بتونس أواصر التعاون مع غير قليل من الدول العربية ، سمح لها بتبادل المصورات للمخطوطات التي يقع طلبها من زوار المكتبة ، والتي توجد في مكتبات دول عربية أخرى .

4 . شبه غياب مراكز خاصة تعنى بتحقيق المخطوطات والتراث ونشره ، ما عدا بعض المبادرات الخاصة ..

5 . قلة وجود المجلات أو النشرات الدورية المختصة بالمخطوطات أو التراث عموما ، مما يفوت فرص الاتصال والتعاون بين المشتغلين والمهتمين بالمخطوطات .

وفي الشقيقة الجزائر ، أصبح الاهتمام بالتراث المخطوط يعرف جهودا حثيثة تكشف عن مدى إدراك المهتمين بالمخطوطات لقيمة وأهمية هذا الرصيد المهم من التراث المخطوط ، إنتاجا وصناعة ومعرفة . وعلى حد ما نعلم ، أن التراث العربي المخطوط بالجزائر كما في باقي البلدان المغاربية الأخرى ، يعتبر ذاكرة الأمة ، وأحد ركائز الهوية المغاربية ، ومصدرا مهما من مصادر التراث العالمي عامة والعالم العربي والإسلامي خاصة . وقد لوحظ في الآونة الأخيرة زيادة الاهتمام بهذا الموضوع من قبل مراكز البحث ، لكونه مرآة تعكس ماضي الأمة الجزائرية وتجربتها في مختلف مجالات الفكر والعلوم والفنون والعمارة .

فلئن كانت مجموعات المخطوطات في الجزائر متواضعة إذا ما قورنت ببعض المكتبات أو الخزائن العامة في العالم العربي ، فإن مرد ذلك وبالدرجة الأولى إلى أن أغلب الإنتاج الفكري قد أحرق أو أتلف نتيجة لتلك الحروب والثورات التي تعاقبت على الشقيقة الجزائر في فترات تكاد تكون متصلة الحلقات ، ونتيجة أيضا لشعار : " الأرض المحروقة " الذي رفعه جنرالات الجيش الفرنسي الغازي ، والذي أغرق البلاد في النار والدم على حد ما ورد على لسان بعض المؤرخين الأجانب .

إن سياسة القمع التي انتهجها الغزاة الفرنسيون في الجزائر ، قد هلكت التراب والتراث ، حيث أحرقت الأرض وصادرت التراث 9.. وما يتبقى من الحرق ، كان يستولي عليه صيادو المخطوطات وهواة جمع الوثائق ممن كانوا يسيرون خلف الجيش الفرنسي يجمعون الغنائم . وهكذا ، ضاعت ثروة مهمة من المخطوطات ما كان لها أن تضيع ، حيث عبر التراث الجزائري المخطوط إلى خزائن متفرقة في فرنسا وإسبانيا وتركيا وغيرها من الأقطار والبلدان. وما تبقى ، انزوى في المساجد والزوايا ، وحتى هذه الأماكن ، لم تسلم هي الأخرى ، فضاع الكثير من محتوياتها ، بعد أن لعبت دورا كبيرا في حفظ التراث العربي المخطوط ، بينما انزوى البعض الآخر بعيدا في جنوب الجزائر .10 وقد تنبه غير قليل من الباحثين لهذا الجانب ، فأصدروا بعض الفهارس لبعض هذه المراكز.. كما قام أحد أمناء المكتبات بإصدار ملحق تابع لما جد من المخطوطات بالمكتبة الوطنية ، اتبع فيه نفس الوصف الببليوغرافي الذي يستعمله المستشرقون .. إلى جانب إصدار فهرس بالعربية للمخطوطات المحفوظة بالمكتبة الوطنية على يد الأستاذين رابح بونار وجلول البدوي . ولا ننسى أنه كانت أيضا بالجزائر مكتبات في ملكية أسر عريقة ومعروفة بميلها إلى العلم ، بل هناك أسر أخرى تحتفظ بثروة مهمة من المخطوطات ، 11 لكنها تبخل بها على الباحثين والمهتمين بإخراج التراث المخطوط . وهناك مؤسسات أخرى أنشأتها

الحكومة الفرنسية إبان احتلالها للجزائر ، جمعت فيها ما توصلت إلى جمعه من مخطوطات ووثائق 12.

وفضلا عما سبق من مراكز تضم أنفس المخطوطات ، هناك كذلك مكتبة جامعة الجزائر التي أنشئت عام 1880 ، وتضم مخطوطات كثيرة ..فضلا عن المعاهد المنتشرة عبر ربوع البلاد ..ولا ينبغي أن ننسى مكتبة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ، وما لها من تجربة في مجال استخدام النظام الآلي في معالجة رصيد مخطوطاتها ، وخاصة الفهرسة والرقمنة ، وذلك بهدف إنشاء قاعدة معطيات لهذا الرصيد من المخطوطات وإتاحته للباحثين . وفي تلمسان ، كثير من المكتبات الخاصة ، بها أعداد من المخطوطات ، أصبح من الضروري الكشف عنها والاستفادة مما تحويه من معارف في مختلف المجالات . لقد ظلت هذه المراكز تحتفظ بكنوز من التراث الفكري ، وربما هناك أماكن أخرى متفرقة في القطر الجزائري الشقيق ما تزال مجهولة ، ويحتاج اكتشافها إلى مجهودات مادية وبشرية على مستوى عال من الكفاءة في مجال البحث عن التراث .

وهي مسؤولية يتقاسمها الجميع ، الدولة من جهة والباحثون المهتمون من جهة ثانية .. وهذا ما شجع المسؤولين على خلق وإنشاء ، مركز الوثائق التاريخية ، ومتحف المجاهد ، والديوان الوطني للبحث العلمي ، حيث جهزت هذه المراكز بأحدث الوسائل ، حتى يتسنى لها العناية الكافية بجمع المخطوطات من جميع أنحاء الجزائر ، بل وحتى من خارج البلاد . وهناك الكثير من المجهودات التي تبذل في هذا النطاق ، يقوم بها بعض الباحثين الجزائريين خدمة لتراث بلدهم ولبني وطنهم . إضافة إلى ما سبق ، لا بد أن نذكر مركزا مهما لحفظ وصيانة التراث المخطوط في الجزائر ، ذلك أن ولاية أدرار ومنطقة توات ، تعدان خزانا وطنيا للمخطوطات تزيد عن 21000 مخطوطا وفق الإحصائيات الفرنسية في الستينيات من القرن الماضي .

مما حدا بالدولة الجزائرية إلى إنشاء مراكز متخصصة في المخطوط والعناية به وتحقيقه وصيانته ، علاوة على إنشاء مركز وطني للمخطوطات يتخذ من ولاية أدرار مقرا له ، اعتبارا للمخزون الهائل من المخطوطات بالمنطقة . ولعل الهدف الرئيسي لهذه المراكز ، هو تقديم الخدمات للباحثين ، أرضاء لمختلف رغباتهم وحاجاتهم المتباينة ، إلى جانب استغلال أعلى نسبة من احتضان المخطوطات لصالح البحث العلمي . لذلك ، فإن وظيفة هذه المراكز أساسية وجوهرية لنمو البحث ، وبدونها لا نتوقع لبحوثنا أن تنمو .

أما في ليبيا ، فإن دار الكتب والوثائق القومية بهذا البلد العربي الشقيق ، تتولى جمع وحفظ وفهرسة وتحقيق وصيانة جميع المخطوطات الموجودة بليبيا ، سواء في المكتبات المختلفة أو مكتبات الأسر ، أو المخطوطات الموجودة عند الأفراد ، أو حتى تلك التي توجد في بعض

المكتبات العربية أو الأجنبية ، حيث تتم صيانتها وفهرستها وتحقيقها على حد ما سبق القول . وأهم المراكز التي توجد بها المخطوطات نذكر على سبيل المثال : المكتبة المركزية بجامعة بنغازي ، وتحتوي على مجموعة من المخطوطات ، حوالي ثلاثة آلاف مخطوط .. توجد من بينها مخطوطات نادرة الوجود ، وهي مفهرسة ومنظمة ، حيث يوجد قسم خاص بالمخطوطات في هذه المكتبة . وهناك مجهودات تبذل لتجميع المخطوطات الموجودة بمدينة "الجغبوب" لضمها إلى المكتبة المركزية . كذلك ، نجد مكتبة الأوقاف بطرابلس ، تتوفر فيها أعداد مهمة من المخطوطات ذات الجودة والقيمة العالية ، يصل عددها إلى أكثر من 15080 مخطوطا مما يدل صراحة على أن مدينة طرابلس كانت مواكبة باستمرار لمسيرة العلم وتطوره ، كما يدل ذلك على وجود الكثير من العلماء الذين كانوا يواكبون المسيرة العلمية في مختلف أطوارها . وبجانب المخطوطات العلمية ، فإن مكتبة الأوقاف تضم كذلك مخطوطات في مختلف فروع المعرفة بصفة عامة، إلى جانب ما تضم من مخطوطات في مختلف العلوم اللغوية والدينية بصفة خاصة .

ولا ننسى أن هذه المكتبة تضم فهرسا للمخطوطات ، فهي تعتبر من أقدم المكتبات العامة ، أسست عام 1898 . ثم إلى جانبها ، نجد مكتبة مصلحة الآثار بطرابلس أيضا ، ثم دار الكتب والوثائق القومية التي تهدف إلى جمع كل المخطوطات حتى تصبح تحت إشراف جهة رسمية واحدة .. دون الحديث عن مكتبات الجامعات الليبية ، والتي تتفاوت نسبة احتضانها للتراث المخطوط من جامعة لأخرى ..وتعتبر المكتبة المركزية لجامعة قار يونس من أكبر المكتبات في ليبيا ، حيث تهتم اهتماما كبيرا بجمع كتب التراث العربي والإسلامي ، كما يضم قسم المخطوطات ذخيرة مهمة وذات قيمة عالية في مختلف ميادين المعرفة . ناهيك عما تمتلكه بعض الأسر الليبية من مخطوطات ، وكذا ما يوجد عند بعض الأفراد . وعلى الرغم من هذه الوفرة من المخطوطات بالقطر الليبي الشقيق ، فإنه لا توجد فهارس المخطوطات وعناوينها بشكل منتظم ومضبوط ,اخوف ما نخافه ، أن تمتد بعض الأيادي الآثمة للعبث بهذا التراث الكبير في ظل ما تعرفه الشقيقة ليبيا من تناحر وتنافر ، لتضيع في خضم هذا الصراع جهود العديد من الباحثين الذين أفنوا زهرة حياتهم في العناية والاهتمام بالتراث المخطوط .

وفي المغرب ، نجد رصيدا وثائقيا مهما من التراث المخطوط ، يعكس عمق الاهتمام بهذا الموروث ، نظرا لغناه وتنوعه ، سواء على المستوى المعرفي أو على المستوى الجمالي .

وهذا الرصيد يتوزع بين مكتبات عامة وخاصة .. منها ، الخزانة الحسنية بالرباط ، وتحتفظ بالعديد من المخطوطات النادرة التي أنجزت بإشارة من الملوك من مثل : " ديوان في نسب الأشراف "13 الذي ألفه العالمان ، ادريس بن عبدالوهاب العلمي ، وأحمد بن عمر العلمي لأجل

الملك مولاي سليمان . كما نذكر أيضا كتاب :" إدراك الأماني من كتاب الأغاني " الذي ألفه محمد بن عبد القادر السلاوي الأندلسي الفاسي لأجل الملك محمد بن عبد الله .. وعلى كل حال ، فالخزانة الملكية تحتفظ بالعديد من المخطوطات الخزائنية14 التي كان الملوك المغاربة يتلقونها ببالغ الانشراح 15.أماالمكتبة الوطنية ، فهي غنية بعدد من المكتبات الخاصة من مثل مكتبة ماء العينين ، ومكتبة الأديب الحاج المختار بن عبد الله بن باشا مكناس ، ومكتبة النادي الألماني بطنجة ، ومكتبة الحاكم العام " كلوزال "ومكتبة " بونار " الموظف الجزائري ، ومكتبة قنصل فرنسا " لوريش " ..وأما خزانة القرويين بفاس ، فتعج بالكثير من المخطوطات القيمة . فقد زودها أبوعنان بالكتب المرتبطة بمختلف فروع المعرفة : الدين والطب ، والفكر وعلوم أخرى بحسب فروعها المتنوعة ، والأقسام والأصناف ، وذلك بهدف تيسير العمل على الطلبة والباحثين . وقد اغتنت هذه الخزانة كثيرا بالكتب في عهد الملوك الذين جاءوا بعد هذا الخليفة المريني . وبذلك تكون خزانة القرويين أقدم المكتبات في المغرب وأشهرها ، 16 حيث اعتبرها المغاربة أول خزانة كتب في العالم . وتعد خزانة ابن يوسف بمراكش ، المنافس والقرن والأساس للقرويين ، تضم مجموعات قيمة أنشئت بوجه خاص من الوقف 17. وتشير فهرسة وضعت لهذه الخزانة في نهاية القرن السابع عشر الميلادي أن هاته المؤسسة كانت غنية جدا .فهي كانت تضم مخطوطات متعلقة بالفروع العملية التالية : المصاحف وعلوم القرآن ، والأحاديث النبوية ، وأصول الدين ، والتصوف والقانون والقضاء ، وفقه اللغة والنحو والبلاغة والتاريخ والترجمة والفلسفة ، والمنطق ، والعلوم الرياضية ، والطب والأدب ، ومؤلفات تركية .18 أما الخزانة الوطنية بتطوان ، فكانت تغتني بواسطة الاقتناءات وخاصة الهبات . فهي تمتاز بكونها تمتلك فهرسا عاما لخزانات كتب المنطقة الشمالية من المغرب ..وذلك للحصول على المعلومات الببليوغرافية19 . وإلى جانب ما سبق ، نجد خزانة الجامع الكبير بمكناس ، والخزانات التابعة لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، وكذا المكتبات التابعة لبعض الزوايا المنتشرة عبر الأقاليم المغربية ، 20 دون أن ننسى المكتبات الخاصة والتي هي في ملك أفراد وعائلات ، وإن لم تكن هي بدورها في مثل ثراء المكتبة الملكية ، فإن محتواها كان متنوعا ، وتراثهاما فتئت تتزايد عبر الابتياع والوقف الذي أسهم بشكل كبير في إثراء وتحسين المكتبات المغربية .

إن العناية بجمع وفهرسة المخطوطات بالمغرب ، كانت قد بدأت منذ 1920 ، حيث وضع لها ليفي بروفنصال21كشفا ضمن مجموعة مطبوعات معهد الدراسات العليا المغربية في الجزء الثامن الذي طبع بباريز سنة 1921 تحت عنوان : فهرسة أسماء الكتب المخطوطة المحفوظة في خزانة المدرسة العليا للغة العربية واللهجات البربرية بالرباط 22أي مكتبة كلية الآداب

والعلوم الإنسانية اليوم . فلقد شكلت هذه المؤسسة المهاد الأولي للخزانة العامة . وكانت هذه المجموعة تتعلق أساسا بالتاريخ وحضارة الغرب الإسلامي .

ولا يخفى أن المخطوطات المحفوظة اليوم في المغرب ، تعود إلى القرون الستة الأخيرة .. ترتبط بمختلف العلوم سواء في الجامعات أو في المدارس والزوايا . فاللوائح والفهارس التي أنجزت ، تعطينا فكرة واضحة عما يمكن أن تخفيه المؤسسات العلمية من مؤلفات قيمة . وعلى الرغم من شمولية هذه الفهارس ، فإنها تبقى غير كافية . فالمكتبات المغربية تضم نوادر ما زالت غير معروفة لدى الباحثين والمثقفين وربما حتى الكتبيين أنفسهم .

وعلاوة على ما سبق ، نشير إلى أن مكتبات الجامعات بالمغرب ، تعتبر رافدا من الروافد التي تعمل على خدمة التراث واحتضان القدرات والطاقات ، لذلك ، فهي مطالبة بالقيام في مجال المخطوطات مثل ما هو الحال في الجامعات المغاربية الأخرى التي لها دور كبير في العناية بالمخطوطات .

ومهما يكن ، فإن التراث المخطوط في الأقطار المغاربية غني ومتنوع ، نظرا لما ورثته هذه الجهة من العالم العربي والإسلامي ، من كتابات علمية وفقهية وأدبية ، كانت نتاج ما توصلت إليه حضارة الدولة الإسلامية الأندلس في فتراتها المختلفة ، بالإضافة إلى ما خلفته الإمارات والدويلات الإسلامية في المنطقة من تراث علمي وأدبي وديني ، لا يزال في حكم المغمور إلى يومنا هذا .

يتبين مما سبق ، أن مراكز المخطوطات على امتداد البادان المغاربية ، تستحق رعاية أفضل ، واهتماما واسعا ، وتمويلا سخيا ، وأطرا مؤهلة ، وجهودا كثيرة متتابعة .. بغية تطويرها لتقدم المأمول منها .

فالمخطوطات ثروة قومية سواء بمحتواها العلمي الذي يشكل جزءا من التراث الفكري للأمة العربية والإسلامية ، أو بقوامها المادي باعتباره أثرا من الآثار . ولما كان لا يجوز التصرف بهذه الثروة بأي شكل من أشكال التصرف المادي بيعا أو نقلا أو تشويها أو إتلافا ، ولما كان من الضروري الحفاظ الكامل عليها ، ومواصلة الجهود الكبيرة من أجل استمرار عطائها ، فقد بات من أولى الأولويات ، أن تتضاعف جميع المتدخلين من المهتمين بالتراث العربي المخطوط الذي يعتبر جزءا أساسيا من قوامنا الإنساني والفكري والاجتماعي والتاريخي والسياسي .. ويوثق علائقه بالأجيال العابرة التي عملت على تكوين هذا التراث وإغنائه .

إن المحاولات الجادة التي بذلها المشتغلون في مجال المخطوطات ، تدل على عناية العرب بتراثهم ، عناية جاءت من الجهود التي بذلوها في جمع وتحقيق ونشر طائفة كبيرة من المخطوطات ، مشاركة منهم في إحياء التراث 23، ومن المسؤولية التي ألقتها على عاتقها

المعاهد والهيئات والمجالس المتخصصة ومراكز البحث العلمي ومراكز تحقيق التراث في تحقيقه ونشره 24.. فوظيفة التراث أن يكون موصولا بالمعاصرة ، قادرا على النمو بها ، هاديا إلى الصراط السوي في التقدم نحو المستقبل25من أجل توطيد الصلة بين تراث الأجداد الأصيل والمعارف المستحدثة .

إننا إذا أردنا أن نحافظ على حاضرنا من أجل بناء مستقبل أفضل ، فعلينا أن نحافظ على ما بقي لنا من تراثنا الفكري الذي قضى على الكثير منه التعصب ، واجتمعت عوامل متعددة على إضاعة ما سلم منه ، لما له من قيمة في عملية ترميم الفكر العلمي العربي والإسلامي26 .. ترميما يبين ما أعطاه هذا الفكر للعرب والمسلمين وللإنسانية جمعاء .

هوامش البحث :

1 . حفلت هذه الكتب بكثير من المنثور والمنظوم الذي يؤكد ولع العرب بالكتب ، إضافة إلى إنشاء المكتبات العامة والمدرسية والمتخصصة التي حفلت بملايين الكتب والمخطوطات .. للمزيد من الاطلاع ، انظر : محمد ماهر حمادة ، المكتبات في الإسلام ، نشأتها وتطورها ومصادرها . بيروت . مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر ، 1970

2 . وول ديورانت، قصة الحضارة ، تعريب : أحمد بدران ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر .. 1950 ج.13 ص . 171 .

3 . د. عبد اللطيف صوفي ، لمحات من تاريخ المكتبات . دمشق ، دار طيلاس للنشر 1987 .

4 . فؤاد قزانجي ، المكتباتى والصناعة المكتبية في العراق . بغداد ، مطبعة الجمهورية ، 1972 ص. 26 .

5 . نذكر الباحث ، كوركيس عواد الذي وضع فهرسا مبوبا للمخطوطات العربية بعد جهود طويلة وزيارات علمية للمكتبات الشرقية والغربية . وقد جاء هذا الفهرس معربا تبعا للأقطار التي تمتلك تلك المخطوطات ، يليها أسماء المدن في كل قطر ، ثم أسماء المكتبات التي تقتنيها ، مع مراعاة الترتيب الزمني للفهارس الموجودة في كل مكتبة أو معهد ، وهو فهرس عظيم الأهمية .. صدر هذا العمل الذي قام به كوركيس عواد عن معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية في مجلدين تحت عنوان : فهارس المخطوطات العربية في العالم .

6 . جدير بنا ونحن نفكر في حماية مخطوطاتنا ، أن نفكر أيضا في سبل استرجاعها إلى أوطانها الأصلية التي نهبت منها **7 .** مثل مكتبة آل ابن عاشور ، ومكتبتي الشيخين ، الشاذلي وأحمد المهدي النيفر وغيرها ..

8 . نذكر هنا مكتبة المرحوم ، ح .ح عبد الوهاب التي أهداها للمكتبة القومية قبل وفاته سنة 1959

9 . فعلوا ذلك مع مكتبة الشيخ الحداد في ثورة الحاج المقراني عام 1871 التي يقول عنها فانيان : إنها أثرت مجموعة المكتبة الوطنية بمجلدات كثيرة .

10 . نذكر : . زاوية الهامل بنواحي بوسعادة –. زاوية سيدي علي بن عمر بمدينة طولقة زاوية سيدي خالد بناحية الزيبان قرب بسكرة – . الزاوية التيجانية بتماسين . زاوية درقاوة بمدينة سيدي بلعباس –. زاوية ابن الحملاوي في قسنطينة –بعض زوايا منطقة وادي سوف ...

11 . على سبيل المثال لا الحصر ، ما تحدث به دوسلان عن مكتبة ابن لفقون بقسنطينة التي كانت تضم أكثر من 3000 مجلد أيام الاحتلال الفرنسي .. مكتبة الشيخ المهدي البوعبدلي ، وهو عالم باحث له دراية واسعة بشؤون المخطوطات ومراكز تواجدها قديما وحديثا . وتعد مكتبته من المكتبات الغنية بالمخطوطات في شتى فروع المعرفة ..

12 . أسست المكتبة الوطنية الجزائرية بمرسوم صادر يوم 5 نونبر 1835 ، والتي يضم قسم المخطوطات بها حوالي : 3000 مجلد .. وهذه هي المجموعة التي وضع لها المستشرق " فانيان " فهرسا سماه :

catalogue des manuscrits arabes turcs et persans de la bibliothèque nationale et du musée d'Alger 1893

13 . هذا الفهرس يقع في 306 صفحات من الحجم المتوسط ، ما عدا كشاف العناوين .. قام بمراجعته كل من صالح التادلي وسعيد المرابطي (الطبعة الثانية : 1997 . 1989) .

14 . المخطوط الخزائني : هو مؤلف ذو خط جميل ، حروف كبيرة ملونة ، يكون سفرا بغلاف جميل محلى في بعض الأحيان بالفضة ، يقتنيه كبار محبي الكتب .

15 . من أمثلة ذلك ، نذكر كتاب :"الجوهر الثمين في نخب سير الأمين " الذي ألفه عبد النبي ابن جماعة . وهو مخطوط خزائني مكتوب بخط جميل مشرقي بماء الذهب ، ومسفر بغلاف تونسي جميل جدا ، وموضوع داخل صندوق مغشى بنسيج من الحرير . وتحمل الورقة الأولى منه إهداء باسم سمو باي تونس محمد الهادي باشا .

16 . تضم اليوم أكثر من 3000 مخطوط . و900 رزمة من الخروم (مفككة) وصحائف غير مرئية .

17 . أهدى السعديون العديد من المصاحف الفاخرة لهذه الخزانة .

18 . ينظر سجل الفهارس في مجلة هسبريس ، ص. 55 سنة : 1944 . وهذا الفهرس محفوظ اليوم في الخزانة العامة بالرباط .

19 . تمركزت مصلحة المعلومات الببليوغرفية في الخزانة العامة للحماية ، وجمع فيها فهرس عام لكل خزانات المنطقة .. وجمع فيها أيضا أكبر عدد من السجلات الببيوغرافية والفهارس المطبوعة الموجودة خارج منطقة الحماية .

20 . نذكر : خزانة كتب الزاوية الناصرية في تمكلروت– خزانة كتب زاوية الدلائيين

خزانة كتب الزاوية العياشية– خزانة كتب زاوية " بوجعد " الشرقاوية ..

21 . ليفي بروفنصال :كان مديرا لهذا المعهد في تلك الفترة ..

22 . تأسست عام 1912 ، مهمتها جمع أكبر عدد ممكن من مؤلفات التاريخ الأدبي والسياسي للمغرب والأندلس المسلمة **23 .** إبراهيم السامرائي ، مع تحقيق كتب التراث , ص. 92 . مجلة مجمع اللغة العربية الأردني . عمان ,العدد المزدوج : (11 . 12) السنة الرابعة . ربيع الأول ، رجب 1401 . كانون الثاني ، حزيران 1981

24 . مثل معهد المخطوطات العربية ولجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق العربية في بيروت ، والقسم الأدبي في دار الكتب المصرية ، والمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، والمجلس الأعلى للفنون والآداب في القاهرة ، ومجامع اللغة العربية في الأردن وسوريا ومصر **25 .** معهد المخطوطات العربية ، أسس تحقيق التراث العربي ومناهجه . ص. 11

26 . مطاع الطرابيشي ، في منهج تحقيق المخطوطات . ص. 10 . الطبعة الأولى ، دار الفكر . بيروت . 1983

27 **. أحمد** سعيدان ، التراث العربي ، لماذا نحققه وكيف ؟ ص. 8 . مجلة مجمع اللغة العربية . الأردن ، عمان .العدد المزدوج (23 . 24) السنة السابعة . ربيع الأول . رمضان 1404 كانون الثاني ، حزيران 1984 .